

عبد الحميد بن هدوقة، مرآة التحولات الاشتراكية في السبعينيات.
رواية "ريح الجنوب" أنموذجا.

Abdelhamid Benhadouga: A mirror of socialist transformations in the
1970s. "Wind of the south" as pattern.

الجمعي بن حركات *

جامعة باتنة 1.

djemai.benharket@univ-batna.dz

تاريخ القبول: 2024-07-01

تاريخ الإرسال: 2024-05-14

ملخص:

تعد فترة السبعينيات مرحلة ثرية، وخصبة في تاريخ الأدب الجزائري المعاصر. لقد تصدى كثير من الروائيين الجزائريين للدفاع عن المشروع الاشتراكي، وبلورته فنيا، وثقافيا، وأيديولوجيا. وقد سعوا بفضل أدواتهم التعبيرية، والفنية إلى رسم معالم الصراع المحتدم آنذاك بين قوى التغيير، والتطور، وقوى الرجعية، والتخلف.

وتعد رواية "عبد الحميد بن هدوقة" "ريح الجنوب" أنموذجا حيا لهذه التحولات التي مست كل مستويات، وشرائح المجتمع الجزائري الذي وجد نفسه يعيش سيرورة واعدة تبشر بكل الفتوحات، والإنجازات.

الكلمات المفتاحية: عبد الحميد بن هدوقة؛ ريح الجنوب؛ الواقعية الاشتراكية؛ الرواية الجزائرية؛ فترة السبعينيات.

Abstract:

The 1970s is considered as a rich period in the history of contemporary Algerian literature. Many Are the Algerian novelists who adopted to defend the socialist project and crystallized it artistically, culturally, and ideologically. Therefore, they sought, through their expressive and artistic tools, to draw the contours of the raging conflict between the forces of change and development on the one hand, and the forces of reaction and backwardness on the other hand.

Abdelhamid Ben Hedouga's novel "The Wind of the South" is a vivid example of these transformations that affected all segments of Algerian society, which found itself living in a promising process that promised all conquests and achievements.

*-المؤلف المراسل.

مقدمة:

لقد ازدهر الأدب الاشتراكي في الجزائر، وعرف عصره الذهبي في السبعينيات من القرن الماضي تمجيذا للمشروع الاشتراكي، الذي اضطلعت السلطة السياسية وقتها لتجسيده، وترجمته إلى واقع، ويعد "عبد الحميد بن هدوقة" أحد الروائيين الجزائريين الذين سعوا إلى الدفاع عن الاشتراكية، على مستوى السرد الروائي، وتعد هذه الرواية التي بين أيدينا محاولة للدفاع عن الأيديولوجية الاشتراكية من خلال برمجة الشخصيات، والتقنيات، والرؤية، والشكل، لذلك جاءت معمارية السرد بكاملها خدمة، وهندسة لهذا التصور من خلال توظيف اللغة، والأسلوب، والعبارات، والتشكيل الفني.

الإشكالية:

تتمثل الإشكالية في مدى قدرة الكاتب على التعبير عن التحولات الاجتماعية، والثقافية، والأيديولوجية التي عاشتها الجزائر في فترة السبعينيات من القرن الماضي.

وهل التقنيات، والاستراتيجيات المعتمدة في الكتابة قد استطاعت أن تعبر بواقعية عن المشروع الاشتراكي، وتجسيده في عالم الواقع.

وكذلك يطرح سؤال خصوصية هذه الكتابة، وقيمتها الفنية داخل الأدب الجزائري، الذي ازدهر في تلك الفترة التاريخية.

الفرضيات:

نفترض ما يلي:

1- قدرة الكاتب على التحكم في آليات الكتابة، لغة، وتعبيرا، ورؤية، وشكلا.

2- إلى أي حد استطاع الكاتب أن يبلور رؤيته الاشتراكية، ويجسدها فنيا.

3- تعد هذه الرواية مرآة صادقة لحقبة تاريخية معينة.

4- ما مدى تحقق استراتيجية الكتابة الاستراتيجية.

المنهج:

لقد اعتمدت في هذه الدراسة على "المنهج الوصفي التحليلي" في الأساس، ولكنني استعنت أيضا ببعض المناهج المختلفة، التي قدمت مردودية مهمة، مثل: "المنهج التاريخي"، و"المنهج التأويلي".

1- ثقل الإرث الاستدماري:

استطاعت الثورة الجزائرية أن تحقق وحدة الشعب، والذي كان له هدف واحد يتمثل في الاستقلال. كما استطاعت أن تخلص الشعب من التناقضات، والصراعات التي كانت تنخر الوحدة الوطنية، وهكذا تحققت الوحدة في الرؤية، والهدف، والاستراتيجية. أما مسائل البناء، وطبيعة النظام السياسي الذي يجب اتباعه بعد الاستقلال، فلم تطرح أثناء الثورة.

جعلت الثورة الشعب الجزائري متراصا كالبنيان المرصوص، وكأنهم على قلب رجل واحد؛ لأن المواجهة الكبرى كانت مع المحتل الاستدماري، الذي استدمر البلاد، والعباد، واستطاع الشعب بفضل تضحياته طرد المستدمر.

كانت المواجهة واضحة، ومحددة، وكانت الاستراتيجية المتبناة محددة، وهذا ما ساعد الشعب الجزائري على تحقيق الاستقلال، وانتزاع حقه في الحياة عزيزا كريما. ومن خلال وحدة الشعب، والتحامه تخلص من هذا المستدمر الذي بقي في أرض الجزائر منذ 1830 إلى غاية 1962.

مع هذا الانتصار تحولت المأساة الى ملحمة. وكانت الأفراح، والأعراس مخلدة لهذا الحدث العظيم، الذي أصبح مضرب الأمثال في مختلف أنحاء العالم.

عبد الحميد بن هدوقة، مرآة التحولات الاشتراكية في السبعينيات. رواية "ريح الجنوب" أنموذجا.

لكن مع السنوات الأولى للاستقلال انفجرت التناقضات التي كانت مجمدة أثناء الثورة، وأضحت الجزائر تعيش على فوهة بركان، نتيجة حدة الصراعات والمواجهات التي كادت أن تؤدي في السنوات الأولى للاستقلال إلى القضاء على مستقبل البلاد.

«لقد عاشت الجزائر سنوات مضطربة بعد استقلالها مباشرة، فبمجرد تحقيق الهدف المنشود؛ أي الاستقلال، تحولت البنادق التي كانت موجهة خلال سبع سنوات ضد العدو، وصوبتها فئات جزائرية ضد بعضها البعض»⁽¹⁾.

2- عهد التحولات الاشتراكية:

واستطاعت السلطة المنبثقة عن أحداث 19 جوان 1965، أن تحقق كثيرا من الاستقرار في المجالات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية. وقد ساعدت ظروف، وأسباب موضوعية على انتقال الجزائر من بداية السبعينيات إلى مرحلة جديدة هي مرحلة التحول الاشتراكي. وقد ساعدت الأوضاع الداخلية، وموازين القوى في العالم على اتباع سياسة اشتراكية حققت كثيرا من الإنجازات لصالح الأغلبية العظمى من الشعب.

وتمثل رواية "ريح الجنوب" لـ "عبد الحميد بن هدوقة" مرحلة العصر الذهبي للاشتراكية في الجزائر. فالرواية طافحة بلوحات حية مستمدة من الواقع الذي تجسد أثناء مرحلة الاستقلال، بكل ما تحمل هذه المرحلة من تناقضات تنعكس على هذه الفترة، كما بين "عبد الحميد بن هدوقة" أن العبرة لم تؤخذ من طرف بعض الأشخاص أمثال "عابد بن القاضي"، و"عبد المجيد بوالأرواح" في رواية "الزلال" لـ "الطاهروطار"، وغيرهما، هؤلاء شوهوا التاريخ النضالي. كما تحدث عن سلوكيات هؤلاء، وكيف أن المصالح وحدها هي التي حددت تصرفاتهم المنبعثة من أيديولوجية قمعية مضمونها الظلم، والقهر.

1- أديب بامية عابدة، (د-ت)، تطور الأدب القصصي الجزائري (1925-1967)، (د-ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص: 193.

ومن أحداث رواية "ريح الجنوب" أزاح الستار عن الحالة الاجتماعية التي كانت تعيشها الجماهير. فالروائي يتوافق مع المفكر الروسي "تروتسكي" في تعريفه للثورة ضد الأفكار، والأخلاق، والتصرفات السلبية ضد الجماهير.

«إذ أنها لم تعد تعني بناء بيوت قوية صلبة تحل محل بيوت سابقة، وإنما تجمع الجماهير، وتكدهمهم في محلات سكنية متشابهة، ومؤقتة، تنتظر ريثما تحين اللحظات الحاسمة، وهذا لا يعني انتظار مجيء المخلص المسيح، بل انتظار زمن تتقوى فيه الجماهير، وتكتسب خبرات كثيرة لإيجاد الوسائل التي تكفل بناء بيوت إلى الأبد».⁽¹⁾

3- تمفصل الأيديولوجية الاشتراكية في رواية "ريح الجنوب":

وعلى الرغم من أنها نُشرت في السبعينيات إلا أنها تتعرض للأحداث التي جرت في أواخر السبعينيات، زمن تأجج المشاعر الاشتراكية من خلال الثورات الثلاث الصناعية، والثقافية، والزراعية.

وقد بينت الرواية الصعوبات، والتحديات التي تواجه المشروع الاشتراكي، الذي يشق طريقه بصعوبة نتيجة استيلاء طبقة انتهازية أمثال "عابد بن القاضي"، الذي يريد أن يزوج ابنته لرئيس البلدية "مالك" حتى يحافظ على أراضيه، وممتلكاته.

«فابن القاضي في ريح الجنوب يستخدم كل الحيل والوسائل ليحتفظ بملكته للأرض، وينظر بالروح نفسها الى ما عداها، لذلك يريد أن يتصرف بابنته كما يشاء من أجل أن يمنعها من مواصلة دراستها، وليزوجها من رئيس البلدية "مالك" حتى يتمكن من انقاذ ملكيته من عملية التأميم».⁽²⁾

1- Trotsky Léon , (1974), Littérature et révolution, Imprimerie Roussierte, Paris, France, pp : 94-95.

2- مخلوف عامر، (2000)، الرواية والتحوليات في الجزائر، (د-ط)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ص: 25.

عبد الحميد بن هدوقة، مرآة التحولات الاشتراكية في السبعينيات. رواية "ريح الجنوب" أنموذجا.

إنها شخصية دينئة تجردت من الإنسانية، وأصبح همه الوحيد بسط نفوذه على الطبقة الفقيرة، والتحكم في رقابها بالدهاء، والتهديد، وهو بهذا يشبه نزاع "الآغا" الإقطاعي الذي استولى على الأرض التي تمتلكها "حسن جبل"، يكمن هذا في رواية موسومة بـ "متى يعود المطر" لـ "أديب نجوي".

«أنسحب! ولكن إلى أين؟ ألم أولد في هذه الأرض منذ أكثر من 20 سنة؟ ألم يسقها أبي وجدّي من قبل بعرقهما ودموعهما حتى ارتوت، وأصبحت تنتج الغلال؟ هذه الغلال التي كان "الآغا"، ووكيله يتصرفان بها وفق أهوائهما دون أن يبالي إلا ما يمسك رفق من تعب بها، وأخرجها سنبله سنبله، وحبّة حبّة، كيف أخرج إذا؟ وإلى أين؟...»⁽¹⁾

تعد فترة التشييد فترة الجهاد الأكبر؛ لأن الثورة تعني محاربة العدو، وتفكيك آلتة الجهنمية عسكريا، وسياسيا، واجتماعيا.

ومع الاستقلال تتحول المواجهة مع الآخر إلى مواجهة الذات. وهنا تختلط الأمور، وتتعدد الأحوال، ويختلط الحابل بالنابل كما يقال، لأن الثورة كانت ثورة الوطنية، ويجب عليها مع الاستقلال أن تتحول إلى ثورة اجتماعية لتؤدي رسالتها التاريخية، والإنسانية المنوطة بها. إنها جدلية الهدم والبناء، والبناء أصعب وأخطر من الهدم، ذلك أن الأمر يتطلب بناء مجتمع جديد على انقاض المجتمع المستدمر. لكن الرواية غير واضحة، وتختلط الأمور لدى "مالك" رئيس البلدية أحد صانعي الثورة المجيدة. فبالنسبة إليه العين بصيرة، واليد قصيرة، ولكن رغم كل هذا أراد فعل شيء في الجزائر المستقلة. إن الثوريين المخلصين يواجهون فتنا كقطع الظلام.

«فقد كان المجاهدون (أمثال مالك) الذين يريدون الاستمرار في خدمة الثورة يواجهون مضايقات كثيرة من طرف "عابد بن القاضي" التي كانت تعتبرهم عناصر خطيرة في مقدورها أن توقظ الشعب على حقيقة الوضع المندهور في البلاد»⁽²⁾

1- نجوي أديب، (1960)، متى يعود المطر، (رواية)، (د-ط)، دار الطليعة، بيروت، ص: 312.

2- أديب بامية عايدة، تطور الأدب القصصي الجزائري، مرجع سابق، ص: 200.

لقد أحس المجاهد "مالك" بالظلم، والإهانة، والاحتقار من طرف "بلقاضي" وأمثاله، هذا ما جعله يعيش حياة حزينة مشحونة بالآلام، واليأس. هذا ما استمدته من حياة العجوز "رحمة".

«والأ ما معنى الحياة؟ إن الغد الذي أنتظره هو الذي يحرك رجلي اليوم. عندما أحفر الطين لا أفكر في الغد القريب، ولكن في الغد البعيد، البعيد... لأن التراب يجب أن ييبس، ثم يدق، ثم يبل، ثم يبني أواني... ثم بعد ذلك يأتي صقلها، ثم تبقى أياما لتيبس، ثم ترقم، وتزخرف، ثم توضع في الفرن... ولت العمل ينتهي هنا! لأن الفرن يعطي لها أحيانا ألوانا، وأشكالا غير التي كنت أنتظرها، وحينئذ أجد نفسي مضطرة للإعادة، وهكذا أبدا، وأعيد أبدا، وأنا سعيدة بذلك، لأن نفسي تحدثني أنه لابد أن يأتي اليوم الذي أصل فيه إلى الإتيان الذي أنشده، وأجد الصورة المثلث التي أبحث عنها».⁽¹⁾

لقد زلزل المجاهدون الحقيقيون، و"مالك" يعيش هذه المأساة، إنه يمثل شريحة الثوريين المخلصين، ولم يستطيع التأقلم، والتفاهم مع هذه الفئة التي يمثلها "عابد بن القاضي"، وأمثاله الذين خانوا الثورة.

«وبالفعل كانت الوحدة شعورا سيطر على العديد من قدماء المجاهدين، وهي وحدة من نوع خاص، وحدة روحية ناتجة عن صعوبة التفاهم مع الآخرين؛ إذ أن هؤلاء الذين حاربوا، وخاطروا بحياتهم في سبيل الثورة، وكانوا يسعون لنجاحها، كان من الصعب عليهم تقبل لا مبالاة الشعب اتجاه الذين خانوا القضية».⁽²⁾

وأصبح الثوريون المزيفون هم الذين يملكون، ويستحوذون على كل شيء، كظهور "عابد بن القاضي" الذي يعده هو الآخر من الانتهازيين الذين يتشدقون بشعارات الثورة لغرض في نفس يعقوب، لأن همهم الوحيد السلب، والنهب، والتموقع، هذا ما جعل "عابد بن القاضي" يتقرب إلى "مالك"، ويريد أن يزوجه ابنته "نفيسة" حتى لا تؤمم أراضيه.

1- بن هدوقة عبد الحميد، (2012)، ربح الجنوب، (د-ط)، دار القصب لل نشر، الجزائر، ص: 76.

2- أديب بامية عايدة، تطور الأدب القصصي الجزائري، مرجع سابق، ص: 195.

عبد الحميد بن هدوقة، مرآة التحولات الاشتراكية في السبعينيات. رواية "ريح الجنوب" أنموذجا.

«تتحدد الملامح الطبقية لهذه الفئة (الانتهازية) التي تطمح إلى المجد بأي ثمن لا يكلف جهدا، ولا عرقا».⁽¹⁾

إنها أزمة القيم الثورية، تلك القيم التي أصبح الانتهازيون يتاجرون بها.

«وعندئذ يلبسون أنفسهم ألباسا فيتعلقون بالحركة التحريرية تاريخا، وهم لم يمارسوها فعلا».⁽²⁾

هذه القيم التي يستغلونها في تضليل الشعب، وتخليده أمثال "عابد بن القاضي" وشخصية "بوالناب" في رواية "المضطهدون" لـ "الهاشمي سعيداني".

يمثل "عابد بن القاضي" الطبقة الانتهازية، التي أسست ملكيتها على الخداع، والكذب، واستعانت أيضا بسياسة الخداع، والتمويه لإخفاء السليبيات. لقد تسللت هذه الشخصية إلى مقاليد الأمور، وبدأت تستغل مركز النفوذ لتحل محل مستدمر الأُمس، فهذه الطبقة جسدها أيضا الروائي "عبد المالك مرتاض" في روايته "الخنازير"، حيث كشف عن هؤلاء أنهم انتهازيون، يستغلون الطبقة الفقيرة، ويتقربون للمسؤولين حفاظا على مصالحهم الخاصة المتمثلة في الثراء غير المشروع.

«أصبح لا يهمه أي شيء في القرية غير مصلحته الشخصية، ولا يدافع إلا عن أرضه التي كان يتهدهدها خطر الثورة الزراعية».⁽³⁾

بين الروائي عبد الحميد بن هدوقة أن الطبقات التي ينتهي إليها "عابد بن القاضي" مكونة من الذين ترعرعوا في كنف المستدمر، وأنهم لم يشاركوا في الثورة، ولكنهم استطاعوا

1- بن قينة عمر، (1986)، دراسات في القصة الجزائرية القصيرة والطويلة، (د-ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص 106.

2- الماجري الحفناوي، (1985)، أزمة المثقف التونسي المعاصر من خلال القصة، (د-ط)، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ص: 60.

3- بوباكير عبد العزيز، وآخرون، (2020)، عبد الحميد بن هدوقة رائد الرواية الجزائرية، (د-ط)، منشورات الوطن اليوم، العلمة، ص: 94.

مع الاستقلال أن ينتهجوا خطة محكمة لبسط نفوذهم على كل شيء ليصبحوا صانعي القرار.

بحثا عن الشرعية الثورية، والأيدولوجية تلجأ هذه الشخصية بمكرها، وخيانتها، وممن رضعوا ثدي الاستدمار حتى الثمالة إلى التقرب من المجاهد "مالك" والمجاهدين، هؤلاء الذين صنعوا الثورة بالاحتفالية المقامة لتدشين مقبرة الشهداء، وهي التي تتولى مصاريف هذه الاحتفالية، تتظاهر بحبها للوطن، وتتظاهر بالكرم، لأن الرجل الانتهازي مستعد للتكيف حسب الظروف. تحتويه الفقرة المستمدة من رواية "ريح الجنوب"، ص، ص: 54. 55.

ويبدو أن ظاهره النفاق التي كان يتحلى بها "عابد بن القاضي" قد أضرت كثيرا بمصداقية الثوريين المخلصين لهذا الشعب، وللوطن عامة، ذلك أن هذه الشخصية المندسة في صفوف المخلصين بتصرفاتها باسم الثورة، والجهاد، وتسعى هذه الشخصية إلى الإبقاء على مخلفات الاستدمار، وتشجيع السلوكيات المناهضة للثورة، وهي تعيش دائما مع الحنين إلى الفترة الاستدمارية، وهي تبجح في سلوكياتها بتمجيد القيم، والأوضاع الاستدمارية، محاولة إعادة إنتاج هذه الفترة الذهبية في نظرها من تاريخ الجزائر، وترى أن الاستقلال يعني الانحطاط والخراب.

ويمدنا الروائي بنموذج للإطار المخلص لوطنه، وشعبه من خلال شخصيه "مالك". هذا الإطار الكفاء الذي يستحق عن جداره أن يكون رئيس بلدية نظرا لكفاءته، ونزاهته، وتضحياته. إنه مثال للإطار الذي ثار ضد "عابد بن القاضي" وأمثاله الذين لا يعرفون من الحياة إلا الجانب الحيواني الاستهلاكي. هؤلاء يريدون تحطيم شخصية "مالك"، لكنه أصر على مواجهتهم، وهذا بالتضحية من وقته، وجهده رغم أنه يعيش في بيئة حالكة الظلام.

فهم يخافون من شخصيه "مالك" الوفي للقيم الثورية، التي من أجلها ضحى الشهداء، والذي كان بالمرصاد ضد "عابد بن القاضي"، الذي لا يكتفي بالسيطرة على "رابح" راعيه للغنم، لأن طموحاته التوسعية تجعله لا يقنع بهذه السلطوية. لقد استطاع عن طريق النصب والاحتيال أن يستثمر في قطاعه الفلاحي، ويستولي على ممتلكات غيره ولو

عبد الحميد بن هدوقة، مرآة التحولات الاشتراكية في السبعينيات. رواية "ريح الجنوب" أنموذجا.

على حساب "نفيسة" ابنته، الذي يفرض رأيه على زوجته "خيرة"، وكيف تصير جزءا من ممتلكات زوجها الاقطاعي، فهو يقرر مصيرها في مكانها.

«ف"ابن القاضي" في "ريح الجنوب" يستخدم كل الحيل، والوسائل ليحتفظ بملكه للأرض، وينظر بالروح نفسها إلى ما عداها، لذلك يريد أن يتصرف بابنته كما يشاء من أجل أن يمنعها من مواصلة دراستها، وليزوجها من رئيس البلدية "مالك" حتى يتمكن من إنقاذ ملكيته من عمليات التأميم».⁽¹⁾

فهو يرفض أن يكون لها وجود مستقل يقف ضد حريتها، وهو بهذا يتماشى مع "جبران خليل جبران" في قصصه الموسومة بـ "الأرواح المتمردة"، ص: 66.

وهو بهذا الإحساس يشبه شخصية "سي الحاج قدور" في القصة الموسومة بـ "السنابل" للروائي "الحبيب السائح"، ص: 22.

كما يذكرنا الروائي بهذه الشخصية شخصية "بن الصخري" في رواية "نهاية الأمس"، وهو بهذا التفكير الاقطاعي يساير تصرفات شخصية "إبراهيم بك فاخر" في روايته الموسومة بـ "الشرع والعاصفة" للروائي "حنا مينة"، ص: 442.

فعن طريق شخصية "عابد بن القاضي" حشد الروائي صورا مختلفة من دروب النفاق، والخداع، والزيف، والانتهازية، فهذه الشخصية هي بمثابة الخفافيش التي لا تعيش إلا في الظلام.

«وكان إذا ذكر خصاله لا يذكرها إلا في غيابه، فهو يدرك أن الناس ينقلون إلى "مالك" كل ما يسمعون... باختصار لم تكن عداوتهما هجوما، بل كانت تربصا، وانتظارا. لكن عداوة "مالك" لـ "ابن القاضي" لم تكن عاطفية شخصية بقدر ما كانت مذهبية، فهو بحكم حياته الثورية الطويلة لا يطمئن لذوي النعمة، والمال مهما كانت المشاعر التي تملأ

1- مخلوف عامر، الرواية والتحويلات في الجزائر، مرجع سابق، ص: 25.

وجدانهم، بينما عداوة "ابن القاضي" لـ "مالك" شخصية منشؤها الخوف... الخوف من الماضي ومن المستقبل».⁽¹⁾

4- الصراع بين القيم الاشتراكية، والقيم المعادية لها:

سارت "الجزائر" مع الاستقلال وفق وتيرة سريعة النمو. وقد كان لنمط التنمية في الجزائر أثر بالغ في خلخلة الموازين الاجتماعية، والثقافية، ونسف الانتماءات التقليدية التي تضمن تماسك المجتمع، ووحدته، وتجانسه، على أنقاض العالم القديم الذي دكت قواعده. برز العالم الجديد، ولكنه بقي يتسلل باحتشام، وببطء الى عالم العصر.

ورواية "ريح الجنوب" تبين هذه الازدواجية، التي يعيشها المجتمع الجزائري، الذي يتأرجح بين الانتماءات، والتطلعات، بين الهوية، والاختلاف.

وتمثل شخصية "الشيخ" الذي حاور الشاب العائد من ديار الغرب نموذج التجذر، والانتماء في مواجهة هذا السيل الجارف، وهذا التيار الذي يأتي على الأخضر واليابس.

إن شخصية "الشيخ" تعد شخصية محبة لوطنها رغم المعاناة التي يعانيها شعبه من ظروف الطبيعة القاسية، وهي توصف بالعقم، والفقر، والبطالة...

«إذا تحركت ريح الجنوب التي يسميها سكان الناحية "القبلي"، وكان الفصل صيفا، فإن القرية المركزية تمثل للزائر الأجنبي مشهدا حزينا يؤلم النفس، والنظر. تشبه القرية التي تصورها عدسات المصورين بعد النكبات الحربية، أو الكوارث الطبيعية. ولو رأيت القرية حينئذ من طائرة "هليكوبتر" لمثلت واديا كثير التعاريج، لا يسيل فيه الماء، ولكن يمتلئ بالغبار، واللهب».⁽²⁾

فهذه الشخصية تنقد بشدة كل مظاهر الحياة الغربية، وقد حاول بهدوء الرد الجميل، والمقنع، واللطيف على الشاب الذي يستهزئ بأرضه ووطنه.

1- بن هدوقة عبد الحميد، ريح الجنوب، مصدر سابق، ص: 55.

2- بن هدوقة عبد الحميد، ريح الجنوب، مصدر سابق، ص: 89.

«أنت لا تعرفها يا بني، ولا تعرف الفلاحة... إن أرضنا ليست ككل الأراضي لا تعطي دفعة واحدة، ولكن الذي يعرف كيف يراودها تمنحه من نفسها ما لا يماثله لذة ما تمنحه سهول متيجة. هنا نستطيع أن نجد اللبن قليلا، ولكنه لذيذ، والعسل... هل هناك نحلة تنتج عسلا مثل عسل نحلنا؟ واللحم هنا... أي لحم أذ منه! والقمح... والخضر... والبيض... ماذا تريد أن تغل الأرض أكثر من هذا؟ صحيح أنها تعطي بشح، ولكن تعطي الجيد، والجيد قليله يكفي يا بني».⁽¹⁾

فالمناقشة التي جرت بين "الشيخ"، و"الشاب" هي مناقشة لطيفة، فرغم وجود هذه التناقضات إلا أن العلاقة التي تربطهما ببعضهما البعض علاقة حميمة؛ فـ "الشاب" لم يواجه "الشيخ" بعنف، وهذا ما تبينه لنا الأحداث من خلال الحوار الذي جرى بينهما؛ لأن الصراع يؤدي إلى إضعاف الروابط داخل المجتمع، ومن ثم تؤدي هذه المعاملة السيئة إلى التفكك في المجتمع الجزائري، وبالتالي إلى قطع الروابط التي تربطهما ببعضهما البعض.

«وأخيرا هناك شباب مهاجر طغت عليه الثقافة الغربية، يبحث عن استرجاع هويته. هو بحاجة إلى استرجاع الماضي، إلى الارتباط بالأصول، وإعادة استكشاف قيم الأجداد من أجل التمكن من تحقيق تحولات يتطلبها المستقبل».⁽²⁾

ومن بين أسباب هذا الاختلاف أن الشباب يؤمن هو الآخر بوطنيته، ولكن يريد التطور التكنولوجي لأرضه؛ لأن العلم أحدث قطيعة في ترابط عقليتين: عقلية "الشيخ" بدائية لا يعرف تطور العلوم، وعقلية الشاب عقلية مقنعة، ولطيفة. ذلك أن صراع الطبقات هو الأصل، وأن صراع الأجيال ظاهرة طبيعية في كل مجتمع، وفي كل زمان، ومكان. يحتويه هذا الحوار في الرواية، ص، ص: 51-52.

فالبطل الايجابي وفق منهج الواقعية الاشتراكية يهتم بالتناقضات الأساسية، على حساب التناقضات الثانوية.

1- المصدر نفسه، ص: 51.

2- بوباكير عبد العزيز، وآخرون: عبد الحميد بن هدوقة رائد الرواية الجزائرية، مرجع سابق، ص، ص: 207-208.

«الإقبال على التعليم أحدث توترا في ترابط جيلين، جيل أمي، وآخر متعلم. كانت للجيل الأول عقلية ملؤها التسليم بحقائق ثابتة لا دخل للإنسان في صوغها، وصارت للجيل الثاني عقلية تنظر إلى الأمور بمنظار السؤال، وإن كان إلى حدّ، فرفضت خرافات كثيرة كانت من تراكمات التأخر التاريخي».⁽¹⁾

ذهبت القيم الأصيلة في ذهن المحافظين الكبار، وتولد عن ذلك إحساس بالغبية، وشعور بانقلاب كبير في موازين القوى الاجتماعية. إن نمط التنمية في الجزائر باعتماده على الصناعة الحديثة، وعلى وتيرة سريعة في التطور، وعلى النزوح الريفي نحو المدن، وعلى انتشار واسع للتعليم، قد فجر كل الانتماءات القديمة.

لقد حرص الروائي "عبد الحميد بن هدوقة" على رصد، ورسم صور معينة للمجتمع الجزائري من خلال تحولاته المختلفة. فقد استعان في تقديم هذه اللوحة بأساليب لغوية، وروائية معينة، حيث نلاحظ أن هذه الصور المقدمة عن الجزائر غنية بالوعي التاريخي، والرؤية الشاملة، والتحليل العميق للحياة، فجاءت صورا واضحة ومضيئة عن تلك الفترة التي عاشها الكاتب، وهذا راجع كذلك إلى تحكم الروائي في موضوعاته، وأدواته الفنية. فالمادة الروائية بقيت صالحة للتناول، والتحليل، والمعالجة، واستطاع التفاعل معها تفاعلا عضويا واعيا. وهكذا كانت الصور قريبة من الحقيقة، ومن الواقع، ومن الحياة بزخمها، وتنوعها، وتناقضاتها.

تبني الروائي كتابة روائية متشعبة بالواقعية الاشتراكية، وخضع في رؤيته للخطابات الرسمية التي كانت سائدة وقت، أوزمن الكتابة.

بينت الدراسة كذلك خضوع الكتابة الروائية لسلطة النص القمعي، الذي يمثله كبار الروائيين الجزائريين، من أمثال "محمد ديب"، و"مولود معمري"، و"مولود فرعون"، و"الطاهر وطار".

1- الماجري الحفناوي، أزمة المثقف التونسي المعاصر من خلال القصة، مرجع سابق، ص: 78.

عبد الحميد بن هدوقة، مرآة التحولات الاشتراكية في السبعينيات. رواية "ريح الجنوب" أنموذجا.

«التأثير والتأثر قانون سائد في الفكر الإنساني، لا يستطيع أي أديب مهما غالى في استقلاله أن يتحرر منه، وخاصة في وقت تكثر فيه مصادرنا المعرفية، وتنوع. ولعل أكثر الأدباء تجربة، وأغناهم خبرة هم أكثرهم غوصا في هذا التراث، وغرفا من محيطه».⁽¹⁾

ولقد جدد أدواته التعبيرية، ورؤاه الفنية، والأيدولوجية، مع النقلة النوعية، والمستجدات التي عرفها المجتمع الجزائري من خلال الحوارات التي أضفها على شخصيات الرواية، فهذا "مالك" رئيس البلدية، والمجاهد الذي وقف إلى جانب الضعفاء الفقراء، والبؤساء، وهم المعذبون في هذه الأرض دفاعا عن قيم الاشتراكية التي تفضي إلى العدالة الاجتماعية، وهو بهذا المبدأ الذي تبناه الروائي يشبه "بايرن"، و"هيجو"، و"جورج صاند"، الذين دافعوا عن هذه الطبقة المحرومة.

لقد تبنى الروائي مشروعا حضاريا ممثلا في الواقع الاشتراكي، حيث نبذ الأيدولوجية الرأسمالية، وبفضل روحه النقدية تمكن من فضح الطبقة البرجوازية السائدة في تلك الفترة، وأحب الأيدولوجية الاشتراكية التي تسوي بين أبناء الجزائر، وهو بهذا مشحون برفضه، وكراهيته للنظام الرأسمالي، يتجسد كل هذا في شخصية "مالك" المجاهد، ورئيس البلدية الذي يمتلك إرادة الحياة، وروح التضحية، فهو الذي يملك إرادة فولاذية من خلالها واجه قساوة الطبيعة، والانسان الرأسمالي الذي يتمثل في شخصية "عابد بن القاضي"، وفلسفة "مالك" في مواجهته لهؤلاء تشبه فلسف "سارتر" القائل: "إن الحرية كل لا يتجزأ. أنا لست حرا إذا لم يكن الآخرون أحرارا".

كما آمن أن "ما بني على باطل فهو باطل".

ترك الروائي في نفسية القارئ انطباعات، وتأثيرات في الوجدان، والنفس، والروح من خلال توظيفه لعلم المجاز، والصور البيانية، والجزالة في التعبير، وتصويره لحياة أهل الريف اليومية تصويرا مفصلا، ودقيقا، وكأن القارئ أمام مشاهد سينمائية يعجز المصور الفوتوغرافي عن تصوير هذه المشاهد من الحياة الريفية.

1- بوباكير عبد العزيز، وآخرون: عبد الحميد بن هدوقة رائد الرواية الجزائرية، مرجع سابق، ص: 214.

«الواقعية الفنية التي تعنى بالإنسان أولاً، وأخيراً بلا "طنطنة"، ولا صراخ، ولا افتعال... الواقعية التي لا تنقل نقلاً آلياً "فوتوغرافياً"، بل تأخذ منه، ثم تعلو عنه بالمعالجة الفنية... بالهمس بالإيحاء... باللفتة المعبرة... بالحوار الطبيعي الجذاب...»⁽¹⁾

يلاحظ أن الكاتب التجأ إلى الوسائل الفنية، والجمالية، والذوق العام، تركته يتعمق في دراسة، ووصف هذه الشخصيات دراسة معمقة، وليست سطحية، كما بينها أنها متشعبة بالروح الواقعية التي جسدها كل من "بلزاك" و"فلوير" و"استانداك" و"زولا"... فمرجعياته استمدت من الواقعية النقدية، التي زاوج بينها، وبين الواقعية الاشتراكية، التي تعد هي المنطلق الأساسي في رؤيته الفنية والأيدولوجية. وبفضل روحه النقدية تمكن من فضح الطبقة البرجوازية السائدة في عصره.

فشخصيات روايته على غرار الأبطال الاشتراكيين الذين يزخر بهم أدب الواقعية الاشتراكية. يصل في النهاية إلى تحقيق النصر على الطبقة الانتهازية، التي تقف في وجه دعاة الاشتراكية وبناتها.

ف "مالك" يشبه شخصية "البشير" في رواية نهاية الأمس لنفس الروائي، هذه الشخصية التي أحدثت هي الأخرى انقلاباً جذرياً في حياة القرية النائمة.

«ولم يُقَدِّم على المجيء إلى هذه القرية من أجل تعليم الأطفال القراءة، والكتابة فحسب، بل بدافع أعمق من هذا، ولغاية أبعد من التعليم، إنه جاء ليحرض الناس أن يثوروا على أوضاعهم، جاء ليحدث انقلاباً في حياة هذه القرية النائمة»⁽²⁾

1- ركيبي عبد الله، مقدمة لرواية بحيرة الزيتون لأبي العيد دودو، (د-ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص: 6.

2- بن هدوقة عبد الحميد، (1978)، نهاية الأمس، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص

5- القيمة الفنية والدلالية لغلاف الرواية:

تمثل واجهة الكتاب فتاة ترمز لشخصية "نفيسة"، وهي بطلة الرواية، أمام بيتها الريفي، وهي في تأملات عميقة سارحة الخيال، لأن والدها يريد زواجها من "مالك"، ولكنها رفضت هذا الزواج، فهي تحب مزاوله دراستها في الجزائر العاصمة، كما لم ترض بحياة القرويين، وحياة أمها، ووالدها التي تناقض مشروعها تماما، رغم تقرب أمها "خيرة"، والعجوز "رحمة"، إلا أنها رفضته بسبب حياتها الدراسية، ولا تعرف أحدا من الرجال في هذه القرية التي تعيش فيها، فهي دائما يغمرها الحزن، والتعاسة؛ لأنها لا تقضي عطلتها مثل بقيه أترابها، فهي تعيشها في ضيق، ووحشة.

لقد كانت صريحة لا تتردد في التعبير عن آرائها، ومظاهر مشاعرها سواء مع أمها، أو مع العجوز "رحمة". فهي مناقضة لهن، رغم المحبة التي تكنها "نفيسة" للعجوز "رحمة". فهي ضد التجذر، والأصالة، والقيم التقليدية، فهي نائرة ضد العادات، والتقاليد القديمة، ومنسلخة عن هويتها. وهو ما يحتويه الحوار الذي جرى بين العجوز "رحمة" و"نفيسة". فالعجوز تعلقت بالماضي إلى حد الإيمان بالخرافات، والمعتقدات الشعبية الباطلة التي عشعشت في أذهان الفلاحين. فهذه الشخصية تمثل شريحة من الأميين الذين يؤمنون إيمانا أعمى بهذه الخرافات، التي تناقض مع ذهنية "نفيسة". وقد وجد "عابد بن القاضي" فرصة مع هذه الشريحة للترويج للدجل، والشعوذة، بهدف التحايل على هؤلاء السذج، واستغلالهم مثل استغلال راعيه "رابح"، ونهبهم.

ف "نفيسة" لا تؤمن بخرافات هؤلاء، وقد واجهت أمها عدة مرات، وكانت المواجهة عنيفة لتبين لها تهاة هذه الرؤى، وحمقها.

وعوض سيطرة فكرة الصراع بين الأجيال، تلك الفكرة التي نلمسها في بعض الروايات الجزائرية، فإننا نلاحظ أنه لا يوجد مبدأ التواصل بين الأجيال، حيث نجد الصراع بين "نفيسة" وأمها من جهة، ووالدها من جهة أخرى.

وإذا كان أبوها يمثل الخسران، والسيطرة على الفلاحين، فإن "نفيسة" تمثل السيل الجارف للقضاء على الغطرسة التي كان يتحلّى بها والدها.

فهي تمثل رمزية المرأة المناهضة لهذه العادات والتقاليد، فبفضلها، وبفضل النساء الأخريات تحررت المرأة من عبودية الرجل، فهي محركة للمقاومة في الأرياف، والمدن، وعن طريق تفكيرها وجهت ضربات قاضية لوالدها.

وقد لجأ الكاتب إلى هذا الصراع لتحقيق نوع من الواقعية، والتعبير بصدق عن حرارة المسائل التي تستحوذ على "نفيسة" بصورة خاصة، والمرأة بصفة عامة.

فصراعها مع أهلها يتناقض مع الشابة "فاطمة" التي وقفت بجانب أمها المريضة المسماة "ظريفة". فإحساسها حنون، ومحبة، ومطيع لأمها في رواية "بحيرة الزيتون" لأبي العيد دودو، ص، ص: 15-16).

فهي ترمز بصراحتها إلى الحضارة، والعلم، والكمال. نفسها تتقزز عندما تسمع أمها تريد زواجها، وتحديثها عن الطعام التقليدي الذي لا تؤمن به.

و"نفيسة" عاشت حالة يأس، ولكن رغم هذا لم تتبدد أحلامها، فلقد واجهت الصراع القائم مع أسرتها بكل قوة، وعنفوان، وأصبح حماسها يقوى، وأخذت سعادتها المستمدة من طموحها تنير طريقها. فتجربتها التي استمدتها من أهل العاصمة أرادت أن تطبقها في ميدان الواقع.

ومن خلالها حققت نفيسة نصجاً عملياً أدى بها في النهاية إلى الحل الأمثل لمشاكلها، ومشاكل المرأة، فاستطاعت أن تغير مجرى الذهنية السائدة آنذاك رغم العراقيل، والتهديدات التي واجهتها، والتي سعت في تحطيمها، وتحطيم كل من تسول له نفسه الوقوف في وجهها.

تمثل نفيسة نموذج حماسة المرأة وإرادة التغيير من أجل حريتها.

«اختيار الروائي لـ (رسم الواجهة للرواية) ينطوي على شيء من القصصية، حين يجيء معبراً عن المتن دلالياً، أو متضمناً فيه، ف (واجهة الرواية) الخارجية هو من النوع المعبر

عبد الحميد بن هدوقة، مرآة التحولات الاشتراكية في السبعينيات. رواية "ريح الجنوب" أنموذجا.

بالرمز، والدلالة عن فكرة ماء، أو نسق مهيمن على المحتوى، أو قصدية النص ملخصه فيه». (1)

الخاتمة

لقد انصببت الدراسة على رواية "ريح الجنوب" لـ "عبد الحميد بن هدوقة" لتقديم قراءة نقدية ثقافية، وأيديولوجية، وذلك بربطها بسياق التحولات الاشتراكية، والاجتماعية التي عرفتها فترة السبعينيات في الجزائر في ظل المشروع الاشتراكي الواعد. وقد بينت الدراسة مقومات استراتيجية الكتابة المتبناة، والتي استلهمت مكوناتها من بعض التيارات الفنية والأدبية الخصبة مثل الواقعية الاشتراكية، والواقعية عموما لوضع هذه الكتابة في إطارها التاريخي الحقيقي وإشكالياته المختلفة.

1- كاصد سليمان، (2009)، علم النص دراسة بنيوية في الأسلوبية السردية، (د-ط)، دار الكندي، الأردن، ص: 18.

قائمة المصادر والمراجع:

1. بن هدوقة عبد الحميد، (2012)، ربح الجنوب، (د-ط)، دار القصبة للنشر، الجزائر.
2. أديب بامية عايدة، (د-ت)، تطور الأدب القصصي الجزائري (1925-1967)، (د-ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
3. الماجري الحفناوي، (1985)، أزمة المثقف التونسي المعاصر من خلال القصة، (د-ط)، الشركة التونسية للتوزيع، تونس.
4. بن قينة عمر، (1986)، دراسات في القصة الجزائرية القصيرة والطويلة، (د-ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
5. بن هدوقة عبد الحميد، (1978)، نهاية الأمس، ط 2، الشركة الوطنية لنشر والتوزيع، الجزائر.
6. بوباكير عبد العزيز، وآخرون، (2020)، عبد الحميد بن هدوقة رائد الرواية الجزائرية، (د-ط)، منشورات الوطن اليوم، العلمة.
7. ركيبي عبد الله، (1984)، مقدمة لرواية بحيرة الزيتون لأبي العيد دودو، (د-ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
8. كاصد سليمان، (2009)، علم النص دراسة بنيوية في الأسلوبية السردية، (د-ط)، دار الكندي، الأردن.
9. مخلوف عامر، (2000)، الرواية والتحول في الجزائر، (د-ط)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
10. نجوي أديب، (1960)، متى يعود المطر، (رواية)، (د-ط)، دار الطليعة، بيروت.
11. Trotsky Léon , (1974), Littérature et révolution, Imprimerie Roussierte, Paris, France, pp : 94-95.

